



## المشاريع الصهيونية الأولى ودورها في تأسيس دولة إسرائيل

مراد البساطي

كاتب وباحث من القدس

في العام 1948، وفي إحدى ضواحي تل أبيب، أعلن بن غوريون عن إقامة دولة إسرائيل، وهذه ليست الحالة الأولى التي يؤسس فيها المستوطنون دولة لهم مستغلين الشرط الاستعماري لصالحهم، فجنوب إفريقيا والولايات المتحدة دول نشأت في رحم المستوطنات. حيث جمعت الحركة الصهيونية اليهود من مختلف أصقاع الأرض، وأسست مستعمرات ومؤسسات حاضنة: كالجيش والجامعات والمؤسسات الاقتصادية، وصهرتها ضمن بوتقة الصهر الصهيونية ضمن ثالث: الجيش واللغة والدين المشترك ضمن قومية مختلقة أساسها الدين اليهودي، حيث استطاعت الحركة الصهيونية أن تنسج رواية قومية لخلق قومية يهودية، وحيث استفادت من الاستشراق الأوروبي في مواجهة «الوجود» الفلسطيني بـ«تأويل» صهيوني - أوروبي حول فلسطين، ومن هنا بدأت بخلق بني لمشروع استعماري في فلسطين متذرعة بالحق التاريخي، وفي الوقت نفسه، اعتبرت الصهيونية نفسها حركة تحرر قومي لتشكل ثنائية

فريدة تدمج فيها البنى الاستعمارية والتحررية معاً.<sup>(1)</sup>

في المقابل، فشل العرب في تأسيس دولة<sup>(2)</sup> لهم، على الرغم من وجود العديد من الأحزاب والنخب والبنى الاقتصادية. حيث ظهر قبل العام 1948 العديد من الأحزاب والزعامات الفلسطينية، التي لعبت دوراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. وعلى الرغم من تشكيل حكومة عموم فلسطين، إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح، ولكن يبقى السؤال التقليدي هو: لماذا فشل الفلسطينيون في تأسيس دولة؟ وما العوامل التي أدت إلى ذلك؟ وما السياق التاريخي والاجتماعي والفكري الذي وجدت به الصهيونية بالذات قبل العام 1948؟ وكيف استطاعت الحركة الصهيونية أن تؤسس دولة؟

### بواكير المشروع الفكرية بين الهسكلاه والصهيونية

من المهم التمييز بين المراحل التي مرّ بها المشروع الاستعماري الصهيوني عامة، وهي: مرحلة ما قبل الصهيونية، ومرحلة الصهيونية؛ حيث أدى التقاء المصالح بين الدول الاستعمارية والحركة الصهيونية إلى تدشين الدولة في العام 1948 كمحصلة لهذه الجهود وكمنتج للمشروع الاستعماري الصهيوني المتحالف مع المشروع الاستعماري الأورو - أميركي، وكوليد لهذه الجهود المتواصلة، حيث قامت الدول الاستعمارية بتصدير خطيئة العدا للسامية بعيداً عن أوروبا من خلال الاعتراف بدولة لليهود خارج أوروبا، وتحويل العدا لليهود على العرب، ومن ثم اعتبار اليهود امتداداً للحضارة الغربية بعد أن تم إقصاؤهم عنها». دفع تطور الرأسمالية المسألة اليهودية

(1) لمزيد من التفاصيل، انظر إلى: ما طرحه كل من إدوارد سعيد في كتاب «القضية الفلسطينية»، وقسطنطين زريق في «معنى النكبة».

(2) لمزيد من التفاصيل، انظر إلى: الخالدي، رشيد. 2008. الجدار الحديدي، قصة الصراع الفلسطيني لإقامة دولة. ترجمة هشام عبد الله. بيروت. المؤسسة العربية للنشر.



في اتجاهين متناقضين تمامًا، فمن جهة ساعدت الرأسمالية على الاستيعاب الاقتصادي، وبالتالي الثقافي لليهود، ومن جهة أخرى ساعدت على نمو القومية عند اليهود نتيجة لاقتلاع الجماهير من مراكزها الاجتماعية التقليدية، وحشر تلك الجماهير في المدن وإثارة النعرات اللاسامية ضدهم، وترافقت نهضة القومية اليهودية وتكوين الثقافة اليهودية وظهور الصهيونية، مع تطور الهجرة اليهودية وتجمع اليهود في المدن، كما سار ذلك موازياً مع نمو اللاسامية<sup>(1)</sup>.

برزت عدة حركات اجتماعية وسياسية ودينية في أوروبا، ساهمت في بروز ما يسمى بـ«القومية اليهودية»، ومنها المسيانية، والحسيدوت<sup>(2)</sup>، إضافة إلى الحركات الاجتماعية للهِسكلاه أو حركة التنوير، وهي حركة نهضوية ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر بقيادة موشيه مندلسون، الذي نادى بأن تكون حركة تجديد يهودية على أسس علمانية، حيث نادت بالحرية الفكرية، ودعت رجال الدين اليهود إلى التخلي عن التعصب الديني والانفتاح على الثقافات الأخرى؛ وقد نجم عن هذه الحركة عدة أنماط وتوجهات، منها الاندماجي والتحرري والقومي، فقد طرح أصحاب الاتجاه الاندماجي فكرة اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية والعيش في المجتمع الأوسع. لكن هذا الطرح قوبل بمعارضة من قبل رجال الدين الذين قالوا إن هذه الأفكار قد تذيب المجتمع اليهودي ومن المحتمل أن تلغي الديانة اليهودية. ومن أبرز هذه الأصوات ليو بنسكر<sup>(3)</sup>، الذي نادى مرارًا بالاندماج مع الشعوب الأخرى وتعلم لغاتها. «فلم يوافق أصحاب هذا الاتجاه على الاندماج لما فيه من إلغاء للهوية والثقافة، بل رأوا ضرورة الانفتاح على

(1) حيدر، لطف الله. 2002. الصهيونية وفلسطين. دمشق منشورات وزارة الثقافة، ص 27.

(2) موقع البروفسور عبد الستار قاسم الإلكتروني. [www.abelsatarqasem.com](http://www.abelsatarqasem.com) نسخة إلكترونية استعيدت بتاريخ 2-8-2008.

(3) ليو بنسكر يهودي تزعم حركة أحياء صهيون، طالب في البداية بالاندماج مع المجتمعات، ودعا إلى تعلم الروسية والزواج المختلط إلا أن المجازر التي وقعت بحق اليهود في روسيا غيرت من مواقفه.

المجتمع الأوسع والمشاركة في النشاطات العامة وإقامة العلاقات الاجتماعية الواسعة مع عموم الناس. رأوا أن المشاركة في المناسبات العامة ضرورية كما أن فتح الأبواب اليهودية أمام المسيحيين للتفاعل الاجتماعي حيوي أيضًا، لما في ذلك من تأليف للقلوب وإزالة انطباعات سلبية مسبقة. لكن هذا الطرح لم يحظ أيضًا بموافقة رجال الدين خوفًا على انبهار البعض بالمجتمع الأوسع مما قد يؤدي إلى رحيل متزايد عن المجتمع اليهودي وإلى زيجات متبادلة تتناقض مع المبادئ اليهودية»<sup>(1)</sup>.

يمكن القول بأن حركة المسكلاه كانت بمثابة حراكٍ إصلاحيٍّ محافظ، حيث أفرزت نوعًا من الفصل ما بين الدين والسياسة، هذه العملية استفادت منها الحركة الصهيونية، حيث وظفت الدين لصالح السياسة، ووظفت السياسة لصالح الدين بثنائية مقولبة ومتناقضة في آن واحد. على الرغم من أن الصهيونية قد عارضت المسكلاه بقوة.

ومن أبرز الحركات التي مهدت بشكل عملي لصعود الصهيونية، حركة دافيد روبين 1501 - 1532، الذي حثَّ اليهود على ضرورة العودة لتأسيس مكان في فلسطين؛ وحركة منشيه بن إسرائيل 1604 - 1657 التي تعتبر النواة الأولى التي وجهت خطط الصهيونية وركزتها على استخدام الدول الاستعمارية وطموحاتها لتقوية المشروع الصهيوني؛ وحركة شبثاي زيفي 1627 - 1676، الذي ادعى أنه المسيح المخلص. ومن الحركات المهمة، الحركة الفكرية التي كانت محصلة لجهود عدد كبير من المفكرين اليهود الذين حاولوا وضع حلول للمسألة اليهودية من أمثال موشيه هس وأبراهام ليون. جاءت هذه التوجهات نتيجة لتطور أوضاع اليهود في أوروبا، ودخولهم في معترك الحياة الثقافية، والتأثر بالثورتين الفرنسية والأميركية، إضافة إلى كونها ردة فعل على ظاهرة اللاسامية. وبالأساس كردة فعل على بروز التيارات القومية في أوروبا

(1) لازار، برنار. 2004. مناهضة السامية تاريخها وأسبابها. ترجمة ماري شهرستان. دمشق: دار الأوائل للنشر والتوزيع.



والتي اعتبرت اليهود كجماعات مارقة.

وبعد حملة نابليون على الشرق، حدث تحول جوهري في الأطماع الاستعمارية تجاه فلسطين، مع وجود دور مهم للسياسيين الصهاينة أمثال: دزرائيلي وبالمرستون. تزامن ذلك مع حركة رجال المال التي تزعمها البارون روتشيلد وموشيه مونتفيوري، وكانت تهدف إلى إنشاء مستعمرات يهودية في فلسطين كخطوة لامتلاك الأرض ومن بعدها إقامة الوطن. ومن أبرز الحركات، كذلك، حركة موشيه هس<sup>(1)</sup> 1812 - 1875 الذي كان صديقاً مقرباً لماركس، حيث طالب بتأسيس مستعمرات يهودية تمتد من السويس إلى القدس ومن ضفة نهر الأردن إلى ساحل المتوسط تكون تمهيداً للدولة اليهودية. وقد طرح هس مشروعه ضمن إطار الاستعمار الأوروبي وحماية مصالحه.

يمكن الاستنتاج بأن هذه الظروف من أجواء معاداة السامية وحالات الاضطهاد والتهمير التي عانى منها اليهود، وبروز التيارات القومية والحركات التنويرية والفكرية اليهودية وعدم النجاح في الانخراط في النهضة التنويرية الأوروبية، أدت إلى تهيئة الأجواء لبروز فكرة القومية اليهودية متمثلة بالحركة الصهيونية<sup>(2)</sup>، التي أرست هذه القومية المتشكلة، كحركة سياسية، إيديولوجية تهدف إلى تجميع شتات يهود العالم، وتوجيههم للعيش في فلسطين.

لا يمكن توحيد التيارات التي كانت موجودة في الصهيونية، حيث عرفت الصهيونية أربعة اتجاهات، منها: الصهيونية السياسية وتزعمها هرتسل وحايم وايزمن وبين

---

(1) صاحب كتاب (روما والقدس)، من أهم مفكري الحركة الفكرية التي نشأت في أوروبا، وطالب بعدم اندماج اليهود في أوروبا.

(2) اشتقت الصهيونية من اسم جبل صهيون في القدس، حيث نقل داود قصره بعد انتقاله من الخليل في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وهذا الاسم يرمز إلى مملكة داود وإعادة تشييد هيكل سليمان من جديد، بحيث تكون القدس عاصمة لها.

غوريون وغولدا مائير من بعدهم، والصهيونية العمالية ومن روادها موشيه هس، نحمان سيركن، والتي سيطرت على السياسة الإسرائيلية وصولاً إلى سبعينيات القرن الماضي، بالإضافة إلى الدور الطليعي الذي لعبته الكيبوتسات في الاقتصاد، والصهيونية الدينية متمثلة بالحاخام أبراهام كوك، الذي أعطى صبغة دينية وشرعية للمشروع الصهيوني على الرغم من معارضة الكثير من رجال الدين اليهود لمبادئ الصهيونية باعتبارها حركة علمانية وهرطقة دينية، كذلك الصهيونية الفكرية وتمثلت بمفكرين صهاينة مثل: موشيه هس، الحاخام زفي هيش كاليشر<sup>(1)</sup>، أبراهام ليون، جابوتنسكي، أحاد هاعام، ومارتن بوبر ودافيد يلين وغيرهم.

## مقدمات التغلغل الاستعماري

يمكن القول إن التنظيمات العثمانية<sup>(2)</sup> قد سمحت ببدايات التغلغل الأجنبي، الأمر الذي انعكس على عمليات شراء الأراضي وبدايات التواجد الاستيطاني والهجرات الاستيطانية. وساعدت التنظيمات على اندماج المنطقة اقتصادياً في السوق الرأسمالية، الذي تزامن مع تطور التجارة البحرية بعد تطوير الملاحة البخارية وافتتاح قناة السويس، وازدياد النفوذ السياسي الأوروبي والنشاط التبشيري. حيث كان لزوال دور الزعامات المحلية في الجليل في أوائل القرن التاسع عشر، وانتقال مركز الإدارة من عكا إلى بيروت في عهد التنظيمات العثمانية أهمية كبرى، حيث ترك ضعف النخبة المحلية فراغاً ملأته بعض العائلات اللبنانية مثل: سُرسق، وتويني والهازن وغيرها.

يعدّ قانون تسجيل الأراضي سنة 1858 من السياقات المهمة، حيث تمكن بعض التجار

(1) نشر كتاب بعنوان البحث عن صهيون في العام 1862 ويتحدث فيه عن الاستيطان الزراعي

(2) أُطلق اسم التنظيمات على جملة الإصلاحات الجديدة التي أُعلنت في عهد السلطانين عبد المجيد وأخيه عبد العزيز لتمييزها عن الإصلاحات التي تم تنفيذها في أواخر القرن الثامن عشر حتى وفاة السلطان محمود الثاني سنة 1839.



من تسجيل مساحات واسعة من الأراضي بسبب عجز الفلاحين عن إثبات ملكيتهم أو خوفاً من الضرائب والتجنيد الإجباري، وقد نتج عن ذلك نشوء فئة كبار ملاكي الأراضي، بالذات في القدس ونابلس والجليل وبعض العائلات المسيحية واللبنانية، حيث تكون هؤلاء من التجار والطبقة الوسطى الذين امتلكوا الأراضي عن طريق التسجيل، أما الفئة الثانية فتكونت من الرأسماليين الأجانب واليهود وما يعنيه ذلك. بالذات بعد قانون بيع الأراضي للأجانب سنة 1867، حيث كان لهذا القانون دور مهم في انتقال الأراضي لغير رعايا الدولة العثمانية بصورة قانونية؛ أدت التنظيمات العثمانية وقانون تسجيل الأراضي إلى ظهور ملكيات الأرض الكبيرة، وشريحة جديدة من الإقطاعيين وكبار الملاك، وبرز بمعيتها شريحة من الفلاحين الذين يعملون في أرض لا يملكونها<sup>(1)</sup>.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى وانتهاء الحكم العثماني، وصولاً إلى اتفاقية سايكس - بيكو، والاحتلال الإنكليزي الذي تم إقراره بشكل رسمي في مؤتمر سان ريمو في العام 1920، بقيت فلسطين الانتدابية محط تحولات كبيرة، وقد شهدت هذه الفترة موجات متعاضمة من المهاجرين اليهود، الذين واصلوا شراء الأراضي من كبار الملاك وإقامة المستوطنات فيها، والتي شكلت النواة المركزية للشوف، وهو المجتمع الصهيوني قبل تأسيس الدولة. على الرغم من تركيز اليهود قبل العام 1882 في أربع مناطق رئيسية هي القدس وصفد والخليل وطبريا. ركزت الحركة الصهيونية من خلال الوكالة اليهودية على الهجرة وشراء الأراضي كأداة أساسية في نجاح المشروع الصهيوني، على الرغم من أن شراء الأراضي قد تم بداية من قبل الدولة العثمانية من خلال المزادات العلنية، وسماسة الأراضي والإقطاعيين، أو حتى من خلال قناصل الدول الموجودين، حيث

(1) انظر أيضًا إلى: صايغ، روزماري. 1980. الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة. بيروت: مؤسسة الأبحاث.

سمح للبعثات الأجنبية بتملك أراضي في الدولة العثمانية، فكانوا يشترون الأراضي ومن ثم ينقلونها لليهود. وإضافة إلى ذلك، فقد ساعدت الإصلاحات العثمانية خصوصاً «خط شريف كوخانة» و«خط همايون» بشكل مباشر على تفتيت الملكية، وبالتالي تسهيل عملية شرائها وانتقالها لليهود الصهاينة بعد أن كانت أراضي أميرية تابعة للدولة العثمانية.

في المقابل، شكل إصدار الكتاب الأبيض وثورة العام 1936 وما سبقها من أحداث، كثورة يافا وثورة البراق، مفصلاً مهمًا في تاريخ الصراع، «حيث حشدت لها بريطانيا قوات عسكرية أكثر مما كان موجوداً في شبه الجزيرة الهندية، وبعد ثلاثة أعوام تخللتها هجمات وحشية وعديمة الرحمة على الريف الفلسطيني، نجحت القوات البريطانية في إخماد الثورة ونفيت القيادات الفلسطينية وحلّت الوحدات شبه النظامية التي أدارت حرب عصابات ضد قوات الانتداب. وفي غضون ذلك، اعتُقل أو قُتل أو جُرح عدد كبير من القرويين الذين شاركوا في الثورة. وقد سهّل غياب معظم القادة الفلسطينيين وحلّ الوحدات المقاتلة الفلسطينية على القوات اليهودية في سنة 1947 اجتياح المناطق الريفية الفلسطينية دون صعوبات»<sup>(1)</sup>.

## المشاريع الأولى التي دشنتها الصهيونية في فلسطين

يعتبر البعض أن الحركة الصهيونية قد جاءت «تحقيقاً لإرادة القوى الدولية الغربية الراغبة في خلق رأس جسر غربي في المشرق العربي، والتخلص من المشكلة اليهودية، ورد فعل على اللاسامية، وعلى إشكالية الاندماج بعد ظهور الفكرة القومية والمساواة والمواطنة وفشل اليهود في الانضمام إلى مشروع التنوير الأوروبي»<sup>(2)</sup>. دشنت الحركة الصهيونية منذ تأسيسها العديد من المشاريع، التي من أهدافها إقامة وطن قومي

(1) بابيه، إيلان. 2007. التطهير العرقي في فلسطين. ترجمة أحمد خليفة. ط 1 بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ص 23.

(2) عبد الجواد، صالح. (بحث غير منشور). «الصهيونية، مدارس ومفكرين ومشروع، مدخل عام».





لليهود في فلسطين، ولتحقيق ذلك، خصصت بعض الأدوات التنفيذية لعلّ من أهمها: تأسيس المنظمة اليهودية ومن أبرز زعمائها هرتسل وهرتسوغ ووايزمن، كذلك تأسيس الوكالة اليهودية كذراع تنفيذية للمشروع. بالإضافة إلى تأسيس الكيرين كيمت والكيرن هيسود.

يمكن تقسيم هذه المشاريع إلى نوعين، الأول يمثل البنية الفوقية ويشمل: توظيف الدين اليهودي، وإحياء اللغة العبرية وإعادة كتابة التاريخ وتحويل السكان إلى صهاينة، واحتكار دور الضحية. والنوع الثاني يتمثل بالبنى التحتية، جسّدها المهجرة والاستيطان وتأسيس العصابات الصهيونية، ومشروع ملفات القرى العربية، وإقامة المؤسسات التعليمية والطبية والمنشآت الحيوية والاقتصادية، والجامعات والمعاهد البحثية والعسكرية<sup>(1)</sup> كالتالي:

## مشاريع البنية الفوقية

### أولاً، توظيف الدين اليهودي لتنفيذ مآرب الصهيونية وتحويل الدين إلى قومية

استخدمت الحركة الصهيونية<sup>(2)</sup> ومفكرها الدين اليهودي كرافعة لتحقيق مشروعهم، وأكثر ما يعبر عن وجهة النظر هذه رسالة من بن غوريون إلى نائبه موشيه شاريت يقول فيها «ليس لنا أن نفصل الدين عن الدولة، فهناك وحدة مصير بين دولة إسرائيل

(1) لمزيد من التفاصيل انظر إلى: هويدي، أمين. 1986. صناعة الأسلحة في إسرائيل. دار المستقبل العربي. ط 1.

كذلك إلى مجموعة مؤلفين. 1986. حرب فلسطين. 1947-1948 الرواية الرسمية الإسرائيلية. ترجمة أحمد خليفة. ط 2. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. ص 407.

(2) لمزيد من التفاصيل انظر إلى: الخالدي، وليد. 1998. الصهيونية في مئة عام من البكاء على الأطلال إلى الهيمنة على المشرق العربي 1897-1997. دار النهار. ط 1. بيروت.

والشعب اليهودي»<sup>(1)</sup> وقد تم تسويق ذلك من خلال إقناع الجاليات اليهودية بأن هذا المشروع الاستعماري الخلاصي هو الحل لكل مشاكل اليهود. وهنا يقول عزمي بشارة «لم يمنح الدين القومي الصهيونية الأسماء والمفردات واللغة فحسب، ولا الأرض والتوراة فحسب، بل والأهم من ذلك أنه منحها البعد القيمي الإيجابي والتداعيات الثقافية والتراثية الإيجابية لهذا كله»<sup>(2)</sup>

### ثانياً، إعادة كتابة التاريخ إخراجاً وتطهيراً

لم يتم الاكتفاء باستخدام الدين كمبرر، بل وظف لذلك علوماً كالأثار والتنقيبات والحفريات والتاريخ، ولا عجب أن تكون هذه العلوم أكثر ما ركزت عليه الحركة الصهيونية، وذلك لربط النظرية الدينية بالواقع الاستعماري. فمثلاً، يقول غوردون في تعبير عن قوة التاريخ «أرض إسرائيل هي أرضنا طالما أن شعب إسرائيل يعيش ولا ينسى بلده، ولكن من جهة أخرى، لانستطيع الادعاء أن العرب لا يملكون جزءاً فيها، السؤال هو بأي معنى ولأية درجة هي أرضنا وكم هي لهم؟ وكيف يستطيع المرء تقريب وجهة النظر لادعاءات كلا الجانبين؟»<sup>(3)</sup>، حيث يتم طمس فترات وحقب تاريخية والتركيز على حقبة دون أخرى<sup>(4)</sup>، مثلاً تم التركيز على قصة المسادا وبعث قصتها في الذاكرة الجماعية اليهودية على أنها بطولية وتضحية، ولترجمة هذه الرواية تم إيفاد بعثة استكشافية في العام 1963 - 1965 بقيادة يغال يدين<sup>(5)</sup>. وقد كان هدف هذه

(1) بشارة، عزمي. 2005. من يهودية الدولة حتى شارون. رام الله: مواطن - المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ص 23

(2) بشارة، نفس المرجع السابق، ص 24.

(3) ستيرنهال، زئيف. 2001. الأساطير المؤسسة لإسرائيل. رام الله: مدار. ص 81.

(4) لمزيد من التفاصيل انظر إلى: بنفينسي، ميرون. 2001. المشهد المقدس، طمس تاريخ الأرض المقدسة منذ 1948. ترجمة سامي مسلم. مدار. المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

(5) بن يهودا، نحمان. 2001. «أسطورة المسادا». مجلة الكرمل. ع 67: ص 206.



العملية «العودة إلى التاريخ» هـشيفال هستوريا» والعودة إلى أرض إسرائيل «هـشيفا إل يسرائيل» ونفي المنفى «شليلات هـغلوت»<sup>(1)</sup> وضمن نفس المنظومة، تمت عملية التركيز على جوانب العنف والانتصارات ولتعزيز فكرة الأمة المحاربة.

من العوامل التي صنعتها الصهيونية كذلك ربط تاريخ اليهود الطويل بتاريخ دولة إسرائيل، حيث تم تبني فكرة وجود روابط تاريخية ما بين الحركة الصهيونية الحديثة وبعض الحركات الاجتماعية والثورات التي أقامها اليهود خلال فترات تواجدهم على أرض فلسطين، كحركة المكابيين؛ والحشمونيين، وثورة باركوخبا؛ وحركة موزس الكريتي وغيرهم. وربط أصولها البيولوجية بأسباط إسرائيل الاثني عشر.

### ثالثًا، تحويل السكان من مواطنين في الدول التي كانوا يعيشون فيها إلى صهاينة ثم إلى إسرائيليين

من أبرز الأعمال التي قامت بها الحركة الصهيونية تحويل السكان<sup>(2)</sup> الذين كانوا يعيشون في بلدانهم ويحملون جنسياتها، وبالتالي تبديلهم إلى القومية الجديدة ممثلة بالصهيونية. وقد لقيت هذه العملية نجاحًا كبيرًا بسبب توظيف الدين كما أشير سابقًا، وبسبب الأوضاع التي عاشها اليهود في أوروبا. غير أنه يوجد هناك طرح آخر، يفيد بتواطؤ الحركة الصهيونية مع بعض الدول، بما فيها ألمانيا النازية، في خلق هذه الظروف المنفرة لدفع اليهود في هذه الدول للرحيل إلى فلسطين. ومن أدلة هذه الادعاءات، الاتصالات التي أجرتها الصهيونية مع الفاشية والنازية. وفي هذا السياق، استخدمت الحركة الصهيونية التفجيرات والهجمات على التجمعات اليهودية، وتحريض اليهود على أعمال العنف لأجل دفع اليهود للرحيل، ومثال ذلك ما حدث لبعض اليهود العرب خصوصًا في مصر والعراق وبعض بلاد المغرب

(1) بتبرغ، غبريل. 2001. «نقد الصهيونية: حالات المحو». مجلة الكرمل. ع 69: 187-199

(2) Massad, Joseph A. 2006. The Persistence of the Palestinian Question: Routledge. Great Britain. P83

العربي،<sup>(1)</sup> ومن السمات المميزة لما قامت به الصهيونية خصوصاً من اليهود العرب أنها أزلت عنهم صفة العروبة واعتبرتهم يهوداً شرقيين مزراحيم أو سفاراديم، هذا الفسخ عن التاريخ واللغة والتراث الطويل أدى إلى حدوث أزمة هوية لدى هؤلاء، بالإضافة إلى التمييز بحقهم على اعتبارهم عرباً من قبل اليهود الغربيين الاشكناز، حيث برزت أصوات تطالب بإعادة الاعتبار إلى هؤلاء من خلال حركة الفهود السود وشخصيات: أمثال إيلا شوحط، ويهودا شنهاف، وآمنون راز - كراكوتسكين وغيرهم.

### رابعاً، إحياء اللغة العبرية

يعتبر إحياء وإعادة إنتاج اللغة العبرية من أبرز إنتاجات الحركة الصهيونية، التي استطاعت تجميع اليهود من مختلف أصقاع الأرض، حيث شكّلت اللغة العبرية والدين والجيش بمثابة العمود الفقري للمجتمع ويمثل بوصلة الهوية الوطنية، سواء من حيث الشكل أو الزي أو النشيد الوطني أو الممارسة. يعتبر دخول اللغة العبرية الحديثة من الظواهر التي تستحق الدراسة والاهتمام، على الرغم من أن عملية إحياء الكتابة العبرية الأدبية كانت أثناء حركة المسكلاه اليهودية، يمكن القول إن دخول اللغة العبرية قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً مع تطور الحركة الصهيونية، التي جاءت كنتيجة لإشكالية الاندماج بعد ظهور الفكرة القومية والمساواة والمواطنة وفشل اليهود في الانضمام إلى مشروع التنوير الأوروبي<sup>(2)</sup>، حيث استطاعت الحركة الصهيونية أن تحول معتقد المسيانية الديني إلى برنامج سياسي، إذ حوّلت الشعارات والرموز الدينية إلى أجندة سياسية.

تمت عملية إعادة إنتاج اللغة العبرية الحديثة في نهاية القرن التاسع عشر، على يد مجموعة

(1) المسيري، عبد الوهاب. 2001. الصهيونية والعنف. ط1. القاهرة: دار الشروق، ص 83.

(2) بشارة، عزمي. 1997. «مائة عام من الصهيونية: من جدلية الوجود إلى جدلية الجوهر». الكرمل،

العدد 53، ص: 11-20



من اللغويين اليهود، لعلّ من أبرزهم: أليعيزر بن يهودا، دافيد يلين، ولجنة اللغة العبرية والتي أسسها أليعيزر بن يهودا 1858 - 1922، الذي حمل لواء تطوير اللغة العبرية، حيث تم تحويل اللغة العبرية من لغة خاصة بالطقوس الدينية إلى لغة مكتوبة ومحكية، وصولاً إلى جعلها اللغة الرسمية لدولة إسرائيل. ومع قيام دولة إسرائيل تم تأسيس مجمع اللغة العبرية، الذي لعب دوراً حيوياً في تطوير اللغة.

### خامساً، احتكار دور الضحية

تعتمد السرديات الصهيونية الكلاسيكية على فكرة احتكار دور الضحية، بالذات بعد موجات معاداة السامية والمحرقّة<sup>(1)</sup>، حيث تعتبر الصهيونية نفسها ضحية ظلم تاريخي. وقد قاد هذا كله الحركة الصهيونية إلى فبركة تاريخ صهيوني خالص معتمد على رواية تبريرية<sup>(2)</sup>. على سبيل المثال: رواية أحداث قيام دولة إسرائيل على نحو يمكن تلخيصها في: إنه بينما رفض العرب خطة التقسيم للعام 1947 المبنية على توصيات لجنة بيل، قبلها اليهود؛ إن حرب الاستقلال الإسرائيلية، أو النكبة الفلسطينية، خيضت بين ديفيد الضعيف، المتمثل بالعصابات الصهيونية، وجالوت الجبار، المتمثل بالقوات العربية؛ إن مشكلة اللجوء الفلسطيني لم تنشأ نتيجة لفعل القوة والمذابح الصهيونية<sup>(3)</sup>، بل نتيجة لدعوات القادة العرب للفلسطينيين بالرحيل للتمكن من رمي اليهود في

(1) لمزيد من التفاصيل، انظر إلى مسعد، جوزيف. 2001. «تفكيك الوعي بالمحرقّة». مجلة الدراسات الفلسطينية. ع. 53: 138-147.

(2) انظر إلى:

Morris, Benny. 2001. Righteous victims: A history of the Zionist-Arab conflict. New York: Vintage books.

(3) لمزيد من التفاصيل، انظر إلى كناعنة، شريف. 2000. الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير. رام الله: مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني شمل.

البحر<sup>(1)</sup>؛ إن العرب هم من رفضوا كل مقترحات السلام بعد الحرب، وإن إسرائيل قبلتها؛ وإن السياسات التي تمارسها إسرائيل ضد الفلسطينيين المواطنين فيها، وأولئك الذين في الضفة والقطاع والقدس، إنما هي للحفاظ على إسرائيل من الزوال قبالة أعمال الإرهاب التي يقصد منها الفلسطينيون إزالة دولة إسرائيل عن الخارطة<sup>(2)</sup>.

## مشاريع البنية التحتية

### مشروع ملف القرى

يعتبر مشروع مسح فلسطين من أهم وأضخم المشاريع التي قامت بها الحركة الصهيونية، ليس لأنه يُعتبر سجلًا استخباراتيًّا وأثنو جرافيًا للسكان والأرض والقرى والمناطق العربية، بل لكونه مصدرًا مهمًّا للمعلومات النادرة والمنهجية عن المجتمع الفلسطيني قبل النكبة. حيث استطاعت الحركة الصهيونية ومنذ أواخر القرن التاسع عشر، أن تجمع معلومات كثيرة عن مئات القرى والمناطق العربية من خلال تجميع وتدقيق وتطوير ما قام به صندوق استكشاف فلسطين، والترسيم العثماني الأثنو جرافي لفلسطين وسوريا<sup>(3)</sup>، وما قامت به سلطات الانتداب ومخابراتها، ضمن ما يسمى بمشروع ملفات القرى، والذي توجد نسخ منه إلى اليوم في أرشيف الهاجاناه في تل أبيب. على الرغم من أن بعض المؤرخين<sup>(4)</sup> يعتبرون أن هذا المشروع قد تزامن مع

(1) لمزيد من التفاصيل، انظر إلى: مصالحة، نور الدين. 2003. إسرائيل وسياسة النفي: الصهيونية واللاجئون الفلسطينيون. رام الله: مدار.

(2) لمزيد من التفاصيل، انظر إلى: موريس، بيني. 2003. تصحيح خطأ. ترجمة أنطوان شلحت. رام الله: مدار، ص 16.

(3) تماري، سليم. الرؤية العثمانية لفلسطين: الترسيم العثماني الأثنو جرافي فلسطين وسوريا. في سالم وليد. 2011. فكر الحداثة في فلسطين. جامعة القدس ومركز القدس لتطوير المجتمع، ص 37-56.

(4) Abdel Jawad. Saleh. Colonial Anthropology the Hagenah Village archives. Jerusalem Quarterly. Vol 68.P 21



تأسيس «شاي» بين الأعوام 1940 - 1948، حيث قام جواله «البالمح» ضمن مشروع ملفات القرى، والذي قامت به الهاجاناه بعمل مسح لفلسطين، شمل المسح الأرض والطبوغرافية؛ والحيز الحضري؛ المساجد، أماكن التجمهر العام، النباتات والزراعة وما شابه، ومن ضمنها المقاهي<sup>(1)</sup> والسكان.

وقد كانت الطرق التي يتبعها الجواله من أجل جمع المعلومات تشمل التنكر على هيئة وفود سياحية أو علماء بيئة أو التسلل المموه إلى المناطق التي يسكنها الفلسطينيون، سواء كان ذلك في القرى أو المدن. كذلك من خلال عملاء محليين على الأرض، والمستعربين ومن خلال التصوير الجوي، ومن خلال الموظفين العاملين في سلطة الانتداب. ومن خلال دراسة الوثائق والأرشيفات القديمة، حيث كان يتم تحرير التقارير من قبل ضباط مختصين، ومن الأساليب المستخدمة: التنصت على الهواتف، متابعة الصحف العربية<sup>(2)</sup>، المعلومات الواردة من بعض المصادر العربية الناجمة عن العلاقات المحتملة بين بعض العرب واليهود وصدقاتهم. وقد شملت هذه المعلومات التفصيلية والاستخباراتية نقاط الدخول والخروج إلى القرى والمدن، أنواع التحصينات والتضاريس الموجودة فيها، الطرق الرئيسية والفرعية، المصادر الزراعية والموارد المائية والثروة الحيوانية، شبكات الكهرباء إن وجدت، المؤسسات الاقتصادية والمقاهي، المغتربين، العائلات والشخصيات المؤثرة، أنواع النباتات والطيور، صوراً طبوغرافية وجوية، خرائط، تصويراً للمنازل وتوزيعها، الأسلحة الموجودة ونوعها، طبيعة القرى والسكان من حيث تصنيفها إلى معادية وصديقة ومحيدة.

وتعود بدايات هذا المشروع إلى صندوق استكشاف فلسطين، عندما قام صندوق

(1) باسكن، اليشه. 2017. هكذا تجسست الهاجاناه على مقاهي العرب. منشورات المكتبة الوطنية الإسرائيلية. نسخة الكترونية بتاريخ 20-5-2020.

(2) Abdel Jawad. Saleh. Colonial Anthropology the Hagenah Village archives. Jerusalem Quarterly. Vol 68.P 30

استكشاف فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر بعمل خرائط طبوغرافية لمسح شرق وغرب فلسطين. وقد شمل المسح تحديد العديد من المواقع التوراتية والإنجيلية. ولا بد هنا من التنويه إلى الدور المهم الذي لعبته جمعية بحث أرض إسرائيل وآثارها<sup>(1)</sup>، والتي تأسست في العام 1914 والتي كان من أهدافها التنقيب والحفريات ونشر الأبحاث. تشبه العملية ما قام به نابليون في الحملة الفرنسية على مصر والشام، حيث اصطحب نابليون فريقاً من العلماء من كل التخصصات ضمن مشروع «وصف مصر» ليسجلوا ملاحظاتهم حول مصر، حيث قاموا بجمع ونشر كل المواد العلمية الخاصة بالحملة، تشمل الخرائط والدراسات واللوحات. ومن المهم هنا التطرق إلى ما قام به المستشرقون والرحالة الذين زاروا البلاد، حيث ركز هؤلاء الرحالة والمستشرقين في تصويرهم ومؤلفاتهم على المواقع التوراتية والإنجيلية، دون أن يكون هناك أدنى اهتمام بالحياة اليومية للسكان ونمط حياتهم إلا ما ندر وبطريقة مشوهة، الأمر الذي يجعل من الصور الفوتوغرافية كأحد أدوات الاستشراق الحديث، وهنا يجب التنويه بأنه لا يمكن توحيد هذا الحكم على جميع المستشرقين والمستكشفين الذين زاروا أو كتبوا عن هذه المنطقة، أو حتى التوحيد بين المستشرقين، خصوصاً المستشرقين الألمان الذين لم يركز عليهم إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق<sup>(2)</sup>.

يمكن الاستنتاج أن مشروع ملفات القرى قد أدى أيضاً إلى إعادة تفكيك وبناء الحيز العام لدى الفلسطينيين، والذي يستند في مجمله إلى المدرسة المابعد بنوية، وإعادة إنتاجه صهيونياً، حيث يُعاد رسم الخرائط، وتُعاد هندسة الأحياء، والأماكن والتسميات، والبوابات والطرق، بطريقة تتوافق والرؤى التوراتية، والأمنية الإسرائيلية.

(1) منصور، جوني. 2009. معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، مدار.. رام الله. ط1. ص 155.

(2) حوراني، ألبرت. 1994. الإسلام في الفكر الأوروبي. بيروت. الأهلية للنشر والتوزيع ونوفل.





## تأسيس العصابات الصهيونية

تناولت العديد من الدراسات، المنظمات الصهيونية العسكرية<sup>(1)</sup>، والتي من أبرزها: الأرغون، وليحي «الستيرن»، والأتسل، ومنظمة هشومير هتسعير، بينما شكلت بالملاح القوة الضاربة للهاجاناه، والتي ستصبح نواة الجيش الإسرائيلي الحالي. تكمن أهمية هذه المؤسسة أنها أصبحت أحد أهم أدوات الصهر الصهيونية، فالجيش يعتبر الرافعة الأساسية التي يبنى عليها الانتماء الوطني، ويمثل بوصلة الهوية الوطنية، سواء من حيث الشكل أو الزي أو النشيد الوطني أو الممارسة. استطاعت هذه المنظمات المتنوعة في مضمونها وسياقها، أن تنتج قيادات ميدانية وأن تلعب دورًا محوريًا في تأسيس الدولة، ومن أبرز التحولات التي أصابت هذه المنظمات ما جرى خلال «السيزون» عندما تم توحيد المنظمات الصهيونية، وحادثة سفينة «الأتلينا». ساهمت بريطانيا في دعم وحماية وتدريب هذه العصابات من خلال الفيلق اليهودي، ومن خلال تدريب المنظمات المسلحة اليهودية، خصوصًا على يد الضابط البريطاني أورد وينغت، الذي أقنع القادة الصهاينة بأن فكرة إقامة دولة يهودية يجب أن تقترن بشكل وثيق بتحضيرات عسكرية وإنشاء جيش<sup>(2)</sup>.

## المؤسسات الاقتصادية والثقافية

من أهم الإنجازات التي قامت فيها الصهيونية في مرحلة التأسيس، كان بناء عدد مهم ونوعي من المؤسسات الوظيفية والحيوية، والتي ما تزال فاعلة إلى اليوم، وقد تفاوت نوع ودور هذه المؤسسات بين المؤسسات الثقافية والاقتصادية والعسكرية<sup>(3)</sup>

(1) انظر للأهمية إلى مجموعة مؤلفين. 1986. حرب فلسطين. 1947-1948 الرواية الرسمية الإسرائيلية. ترجمة أحمد خليفة. ط2. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. ص 326-397.

(2) بابه، مصدر سبق ذكره، ص 24.

(3) انظر للأهمية: مجموعة مؤلفين. 1986. حرب فلسطين. 1947-1948 الرواية الرسمية الإسرائيلية.

والبحثية<sup>(1)</sup> والتي يحتاج كل منها إلى دراسة خاصة، لعل من أبرز هذه المشاريع: تأسيس الجامعات، بالذات الجامعة العبرية في القدس في العام 1925، حيث طرح فكرة تأسيس جامعة في العام 1881 هيرمان شابير، الذي وضع خطة عملية لتأسيس جامعة يهودية، بحيث تكون مركز إشعاع حضاري للمنطقة. وفي العام 1914 تم شراء قطعة أرض تقع على جبل المشارف في القدس على يد يهودا ماغنس. ووضع حجر الأساس لها حاييم وايزمن في العام 1918، حيث تم افتتاح الجامعة رسمياً في العام 1925. ومن الجامعات المهمة، جامعة التخنيون في حيفا في العام 1924. والمتخصصة في العلوم الهندسية والتكنولوجية والهدف من هذه الجامعة تأهيل نخبة من التقنيين والمهندسين. ومن الضروري التنويه إلى الدور الذي لعبه العلماء الألمان اليهود في تأسيس وإدارة الجامعات.

ومن المشاريع المهمة تأسيس مشروع روتنبرغ لتوليد الكهرباء<sup>(2)</sup>، وهو مشروع أسسه بنحاس روتنبرغ في العام 1926 لإقامة محطات لتوليد الكهرباء في منطقة الباقورة الأردنية جنوب طبريا عند ملتقى نهر يريموك والأردن. لتوليد الكهرباء في فلسطين والأردن ما عدا القدس والتي منح امتياز توليد الكهرباء فيها إلى شخص يوناني. تغير الاسم في العام 1961 لتصبح شركة كهرباء إسرائيل.

ومن المشاريع الحيوية: محطة التجارب الزراعية في رحوفوت وعتيلت، والمعهد الزراعي الجامعي القومي والذي أسس في العام 1920 في رحوفوت، حيث ضم

ترجمة أحمد خليفة. ط2. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. ص53 و ص67

(1) لمزيد من التفاصيل انظر إلى: أبو عامر، عدنان. 2013. مراكز البحث العلمي في إسرائيل السياسات والأهداف والتمويل. ط1. بيروت.

(2) انظر لمزيد من التفاصيل إلى: مصري، إبراهيم. 2018. أعمدة روتنبرغ مشانقنا استعمار فلسطين بكهربتها. موقع باب الالكتروني. نسخة إلكترونية. استعيدت بتاريخ 10 أيار/ مايو. 2021.



المعهد عددًا من الأقسام المهمة، بالذات قسم الأمراض الزراعية، والتربة والحشرات والري والهندسة الزراعية وتربية الدواجن وصناعة الألبان. كذلك معهد الأبحاث الطبية والذي خصص لدراسة الأمراض المعدية المنتشرة في فلسطين حينها، بالذات الملاريا والجذري وغيرها. ومن المؤسسات: مدرسة القانون والاقتصاد، المختبرات البيولوجية التي أسست في العام 1929. مركز أبحاث علم الأحياء البحرية في إيلات، مركز مائير سيجال لبحوث حدائق الحيوان، جمعية بحث أرض إسرائيل، معهد الدراسات والبحوث الاقتصادية، معهد الدراسات الصناعية، لجنة اللغة العبرية، دار الكتب الجامعية والتي أصبحت فيما بعد المكتبة الوطنية وضمت في جدرانها الآلاف من الكتب والمجلدات والوثائق والصور التي استولت عليها العصابات الصهيونية لدى احتلالها المدن والقرى العربية<sup>(1)</sup>. مدرسة بتسالييل للفنون والحرف اليدوية، تأسيس الأوركسترا السيمفونية والمسرح القومي، تأسيس المتاحف بالذات متاحف العسكرية. تأسيس صندوق المرضى العام «كلاليت»، وشبكة للحافلات «المجد» ونقابات العمال والمعلمين، وتطوير خدمة البريد «هدوثر هعفري».

## الاستيطان والسيطرة على الأرض<sup>(2)</sup>

يعتبر الاستيطان الركيزة الأساسية التي قام عليها المشروع الصهيوني، حيث تم شراء أراضٍ بداية من قبل الدولة العثمانية من خلال المزادات العلنية، وسفاسرة الأراضي والإقطاعيين، أو حتى من خلال قناصل الدول الموجودين فكانوا يشترون الأراضي ومن ثم ينقلونها لليهود.

لعبت المستوطنات اليهودية الأولى في فلسطين دورًا متعدد الأبعاد، الأول من حيث

(1) عبد الجواد، صالح. 2005. لماذا لا نستطيع كتابة تاريخنا المعاصر دون استخدام التاريخ الشفوي حرب 1984 كحالة دراسية. مجلة الدراسات الفلسطينية مج 16. ع 64 خريف. ص 42.

(2) Massad, P20

كونها نواة المجتمع والجيش الإسرائيلي، وشكلت جيوباً عسكرية في قلب المجتمع الفلسطيني. والثاني في كونها حاضنة للنازحين والهاجرين من أوروبا، خصوصاً بعد موجات المجازر ومعاداة السامية. والبعد الثالث لهذه المستوطنات تمثل من حيث الاحتكاك بالسكان المحليين، والدور الذي لعبوه من حيث تشغيل العمال العرب في المستوطنات أو حتى طردهم من أراضيهم بعد عقد صفقات مع الإقطاعيين وكبار الملاك في أيامها الأولى «تكشف الإحصاءات الاقتصادية عن شكل العلاقات العربية اليهودية في بعض القطاعات، ويذكر رومان أنه في سنة 1935 وهي سنة قياسية فيما يتعلق بالبناء اليهودي في القدس، ارتفعت نسبة العرب المستخدمين في القطاع اليهودي إلى 40 بالمئة من مجموع العاملين فيه، وحسب أرقام سنة 1937 في إحصاءات التجارة اليهودية كان لدى ثلث الحوانيت اليهودية تقريباً زبائن عرب، و10 بالمئة منها تعتمد نصف حركتها على زبائن عرب»<sup>(1)</sup>.

بالتوازي، نجحت هذه المستوطنات في إبراز أنماط حياتية وصناعات جديدة مثل تطوير الخمر والزراعة والري وصناعة الألبان وبدايات بعض الصناعات الثقيلة، خصوصاً بعد تأسيس أول معهد للدراسات الزراعية في يافا، كذلك في أنماط العمل والبناء والحدادة الإفرنجية، في الوقت نفسه، حافظت هذه المستعمرات على خصوصيتها ولم تندمج بالسكان العرب كما فعلت الجوالي الأخرى، بل على العكس ساد نوع من الفصل بين العرب والمستوطنين في اليشوف، وظهرت أفكار مثل مبدأ العمل العبري. وفكرة القومية اليهودية والشعب اليهودي التي ستشكل الخطاب الاستشراقي المؤسس للدولة. «إن إرث المستعمرات الحدودية يميز أغلب المشاريع الاستعمارية الاستيطانية، وبهذا فإن المشروع الصهيوني لا يختلف عن منابته الأوروبية ومن ثم الأميركية، فالحي الحدودي هو عبارة عن تحويل محدد لمستعمرة الحدود، سبقتة نماذج متعددة في تاريخ

(1) تماري، وآخرون. 2004. «محرر» القدس 1948. رام الله: مؤسسة الدراسات المقدسية ومركز بديل. ص56



الصهيونية مثل الجدار والبرج «حوماه وميجدال» والمستعمرات الحدودية التي بينها ويستوطنها أفراد نفس الوحدة العسكرية بعد أو خلال خدمتهم العسكرية، إن عملية التفويض تحول مفهوم المستعمرة التقليدي إلى شكل أقرب إلى الحي القفصي المغلق»<sup>(1)</sup>.

## الهجرة الصهيونية

تركز اليهود قبل العام 1882 في أربع مناطق رئيسية هي: القدس وصفد والخليل وطبريا. حيث ركزت الحركة الصهيونية من خلال الوكالة اليهودية على الهجرة كأداة أساسية في نجاح المشروع الصهيوني، تزامن مع الهجرة اليهودية موجات هجرة<sup>(2)</sup> استيطانية متعددة ومكثفة، والتي تزامن حضورها مع بدايات المشاريع الاستيطانية بالذات الهجرات البروتستانتية<sup>(3)</sup> وهجرة الألمان الهيكليين، واليونانيين والأميركان وتجليات هذه الظاهرة. كانت الهجرات اليهودية على شكل خمس موجات رئيسية؛ سبق هذه الهجرات دور متعاضم للقنصليات والامتيازات الأجنبية، بالذات الامتيازات الروسية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية.

يعتبر العام 1882 الحدث المفصلي في تاريخ الاستيطان، حيث ظهرت في روسيا حركة عرفت باسم «حوفي تسيون» كان أنصارها يتجمعون في حلقات اسمها «أحباء صهيون»، وترأسها ليو بنسكر 1821 - 1891. وقد استهدفت الجماعة نشر الوعي بين اليهود، وتشجيع الهجرة إلى فلسطين، وإحياء اللغة العبرية، خاصة بعد أعمال التنكيل بحق اليهود في الفترة ما بين 1871 - 1881. ولذا، فقد فضلت هذه المجموعة الرحيل

(1) الناشف، إسماعيل. 2005. فك الصهيونية: الفضاء والأيدولوجيا في المدينة الصهيونية. بيرزيت: معهد أبو لغد للدراسات الدولية جامعة بيرزيت. ص33-34

(2) انظر إلى الكيالي، عبد الوهاب. 1990. تاريخ فلسطين الحديث. ط10. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(3) مسعد، جوزيف. 2020. مقدمة للنكبة: الاستعمار البروتستانتية الأوروبي لفلسطين. مجلة كنعان الإلكترونية. نسخة إلكترونية استعيدت بتاريخ 16 أيار/ مايو 2020.

والهجرة لكون روسيا غير مناسبة لهم، ولأنها وجدت في ذلك فرصة لترجمة الأفكار حول فلسطين إلى واقع من خلال الهجرة الفعلية. وعليه، فقد نظمت في العام 1882 أول هجرة جماعية إلى فلسطين، علمًا أن عملية تأسيس أولى المستوطنات في فلسطين، كانت في مستوطنة بتاح تكفا في العام 1878، والتي أقيمت من قبل يهود القدس.

## السيطرة على طرق المواصلات الحيوية

ساعد التطور الحاصل في المواصلات في الفترة العثمانية المتأخرة وفي عصر الانتداب من إحداث نهضة اقتصادية. ويعتبر تطوير طرق المواصلات من أسباب ازدهار بعض المدن، وقد أدى تطوير السكك الحديدية<sup>(1)</sup> والموانئ إلى ازدياد عمليات التبادل التجاري بين الدولة العثمانية وأوروبا حينها. مثلًا: قامت الدولة العثمانية كذلك بافتتاح جسر يربط بين ضفتي نهر الأردن في العام 1885، كذلك تم مدّ سكة حديد<sup>(2)</sup> تربط بين يافا والقدس في العام 1892، كذلك تم تعبيد شارع يافا في العام 1861، وأصبح يربط بين يافا والقدس. تميزت فترة الانتداب بشكل عام بتطوير شبكات الطرق الجديدة، والاتصالات والبريد وإدخال الكهرباء والسيارات وعربات النقل الحديثة<sup>(3)</sup>. أثناء ذلك، أقامت الحركة الصهيونية مجموعة من المستوطنات حول الطرق الرئيسية الإستراتيجية وعلى طولها، وأضافت إليها شبكة واسعة من الطرق الفرعية والالتفافية<sup>(4)</sup>. بالذات التي تربط المدن بالمستوطنات. حيث تعتمد العقيدة والهندسة الأمنية الصهيونية، وربما إلى اليوم على مفهوم يقضي بضرورة السيطرة على طرق

(1) هوبزباوم، اريك. 2008. عصر الثورة. ترجمة فايز الصايغ. ط2، بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.

(2) منصور، جوني. 2006. دور سكة حديد الحجاز في تطور مدينة حيفا. مجلة الدراسات الفلسطينية. ع65.

(3) تمّاري، سليم وآخرون. 2004. «محرر» القدس 1948. رام الله: مؤسسة الدراسات المقدسية ومركز بديل. ص64.

(4) انظر كذلك إلى: الموعد، حمد. 1999. «الاستيطان والطرق الالتفافية يخلقان الأبرتهاید في الأراضي

المحتلة». مجلة صامد الاقتصادي. مج 115-116: 301-313.



المواصلات الرئيسية والحيوية، حتى إن معظم المستوطنات قد أقيمت على رؤوس الجبال، حيث تسيطر على الطرق والعقد الحيوية. ولتحقيق ذلك، سيطرت العصابات الصهيونية على معظم العقد والمفارق الحيوية لحظة انتهاء الانتداب، نجم عن هذه الممارسة تقطيع أوصال القوات العربية بالذات القوات المصرية، ودفع القوات العربية للبحث عن طرق بديلة، مثلاً قام الفيلق العربي في الحرب بشق طريق واد النار لربط القدس بالخليل وبيت لحم بعد أن سيطرت القوات اليهودية على معظم الأحياء العربية في القدس الغربية وبسبب تهديدات مستوطنة رامات راحيل، كذلك افتتحت طريق المعرجات لربط أريحا بالقدس بعد أن هددت القوات اليهودية بالسيطرة على طريق أريحا الرئيسي. وأثناء حصار الأحياء اليهودية في القدس الغربية، قامت الهاجاناه بفتح طريق بورما للالتفاف على القوات الأردنية المسيطرة على باب الواد، الطريق الإستراتيجي الواصل بين القدس ويافا.

## خاتمة

في تحليل طبيعة الصراع بين الحركة الصهيونية والحركة الوطنية الفلسطينية، لا بد من الرجوع إلى روبرت بارك ومدرسة شيكاغو<sup>(1)</sup> في تحليلها لتأثير الهجرة على المجتمعات المضيفة والمشاكل التي قد يخلقها وجود هذه الجماعات الدخيلة، مع اختلاف السياق الذي وجدت به الهجرة الصهيونية. حيث قسم بارك هذه المراحل إلى أربع كالتالي:

مرحلة التنافس: حيث يدخل المهاجرون الجدد في علاقة تنافس مع السكان المستقرين وقدامى المهاجرين، وتأخذ المنافسة شكلاً اقتصادياً يتعلق بالعمل وفي البحث عن اعتراف الآخرين بوضعه الاجتماعي.

أما المرحلة الثانية، فهي مرحلة الصراع، والتي تأخذ بعداً متعلقاً ببحث المهاجر عن

(1) انظر أيضاً إلى: كولون، الان. 2012. مدرسة شيكاغو. ترجمة مروان بطش. طريق المعرفة.

فرص لتقاسم السلطة مع الآخرين، فينتزع المهاجر الجديد إبانها اعترافاً من المستقرين القدامى وذلك بتصنيفه ضمن مجموعة عرقية على الأقل.

المرحلة الثالثة، وهي مرحلة التكيف، وخلال هذه المرحلة تفتح وضعية المهاجر إلى إمكانيتين: إما الرفض وإما الاستيعاب ضمن عملية إعادة تشكيل النظام الاجتماعي.

مرحلة الاستيعاب: وتمثل نهاية دورة العلاقات العرقية في استيعاب المهاجر في المجتمع المستقبل عبر بناء صيغ توافق ثقافي بين الاثنين تضبط من خلاله العلاقة بين ثقافة المهاجر مع ثقافات مجتمع المهجر.

بالنسبة للصهيونية، نستنتج وجود نمط من النفي ونفي المنفي، حيث تم تبرير نفي فئات كبيرة من المجتمع الفلسطيني، وسلخها عن تطورهما الطبيعي والتاريخي، في حين تم جلب مستوطنين من المركز الاستعماري الأوروبي، أو من الدول التي عاشوا فيها كالعراق والمغرب بناءً على دينهم اليهودي. ومن ثم تم خلق ارتباطات أخرى، ليكونوا مجتمعاً من المهاجرين المستعمرين، أي من المهاجرين المتجانسين لغوياً وحضارياً في بوتقة الصهر الصهيونية، التي أحلتهم مكان شعب عاش طويلاً في هذا المكان، وعملت على سلخ هؤلاء عن مجتمعاتهم، وتواصلهم الطبيعي مع المجتمعات التي عاشوا فيها، لتحويلهم من أقليات مهاجرة، إلى مستوطنين، من ثم إلى مواطنين، خصوصاً في اليهود العرب حيث أزلت عنهم صفة العروبة، واعتبرتهم يهوداً شريكين مزراحيين، وهذا هو المقصود بفكرة «نفي المنفي» و«نفي وعي المنفي».

يمكن القول إن الصهيونية قد أسست منظومة سياسية واقتصادية وعسكرية وصناعية وعلمية قوية، حيث مهدت جميعها لإقامة الدولة، بالإضافة إلى الدعم والتمويل الخارجي<sup>(1)</sup>. حيث كان مجتمع الشوف أكثر تنظيمياً وتدريباً وتمويلاً وتوحداً فيما

(1) لمزيد من التفاصيل انظر إلى: أوبرين، لي. 1986. المنظمات اليهودية ونشاطها في دعم إسرائيل. ترجمة محمود زايد. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ط. 1. بيروت.





بينها؛ كون البنى الحاضنة باليشوف سمحت لهذا النوع من التضامن العضوي بين المستعمرات، بالإضافة إلى دور القيادة المحوري في بناء دولة إسرائيل، وهنا يجري الحديث عن دور بن غوريون في توحيد العصابات اليهودية، كذلك في شكل البنى الاقتصادية التي أقامها اليهود. على عكس البنى الإقطاعية والاقتصادية والقيادة المترهلة التي كانت سائدة في المجتمع الفلسطيني حينها.

من ناحية أخرى، أدت حالة الذعر والقلق التي كانت موجودة في أوساط المجتمع الفلسطيني، إلى جعل الفلسطينيين منشغلين طوال الوقت في الرد على سياسات الاستعمار بدلاً من عمل تحليل للوضع أو بناء رؤية مشتركة أو مؤسسات مدنية وعسكرية واقتصادية كما فعل اليهود، أو حتى بناء برنامج فعال للرد على وعد بلفور والهجرة، هذه عبر عنها المفتي برسالة قدمها إلى المندوب السامي بعد اكتشاف شحنة أسلحة كانت موجهة إلى اليهود<sup>(1)</sup>. ومن العوامل الأخرى، التعويل على الدعم العربي الخارجي، والذي كان أحد أهم عوامل الضعف والتردي. وتظهر هذه في المراسلات التي أرسلها عبد القادر الحسيني إلى الجامعة العربية، حيث ساهمت الدول العربية في سقوط الكثير من المناطق والمدن بفعل الانسحابات المفاجئة، كما حدث في اللد والرملة، كذلك بسبب ضعف القيادة والتنسيق فيما بينها، والدور الذي لعبه الضباط الإنكليز في الجيوش العربية، بالذات في الفيلق العربي والجيش العراقي. ومن العوامل الأخرى انقسام الحركة الوطنية الفلسطينية الوليدة، وربما إلى اليوم، وعدم اتفاقها على برنامج أو رؤية موحدة، في مواجهة سياسات الانتداب والصهيونية. وفي هذا السياق، يقول فيصل دراج: «لم تقرأ النخبة «الوطنية الجديدة» التاريخ الوطني من داخله، كي تتعرف على الأسباب الموضوعية التي تستقدم الاستعمار وتعيد إنتاجه، بل عمدت إلى قراءة

(1) حمودة، سميح. 2008. أوراق داود الحسيني: جوانب مستترة من النضال الفلسطيني في فترة الانتداب. حوليات القدس. ع6: 5-22. كذلك حمودة، سميح، 2009. ظهور زعامة مفتي القدس. حوليات القدس. ع7: 61-81.

تفصل بين التاريخ وإمكانية بنائه. وهذا ما جعلها تطمئن إلى شعار أيديولوجي لا قوام له، يدعى بالثورة الشاملة، القادرة على نقل «المجد العربي القديم» إلى الزمن الحديث. أسّس وَهْم «الثورة الشاملة» لفكرة «وحدة إرادة الأمة»، التي هي شرط مواجهة الخارج وبناء الداخل. بيد أن الفكرة أنتجت نقيضها، ذلك أن التصوّر السلطوي، وفي ممارسة تسكنها المفارقة، قيّد الإرادة التي يعمل على توحيدها، وسلب البشر حريّتهم وهو «يسوقهم» إلى زمن تحرّري مفترض. فقد أفضى إلى سلطات تحاسب ولا تحاسب، وإلى مجتمعات دورها الخضوع لا المشاركة<sup>(1)</sup>.

---

(1) دراج، فيصل. 2007. من النهضة إلى الحداثة المبتورة. مجلة نزوى. ع51. نسخة إلكترونية استعيدت بتاريخ 25-6-2010